نهاية السلاطين المماليك فى مصر

بعض أجزاء هذا الموضوع معروف جيد المعرفة ، وبعض آخر منه جديد منبعه مؤلفات حديثة لمؤلفين أخصائيين ، فى نواح معينة من تاريخ الشرق الأوسط ؛ ومن أولئك وتلك وشي وستربلنج وكاهن ولين وفشر . وهذا الجديد هو معالجة الوضع التاريخى – والوضع الجغرافى كذلك – لنهاية سلطنة المماليك ، فى مصر والشام ، وسائر ممتلكات هذه السلطنة بالشرق الأوسط ، أى من الناحية العالمية ، أو بعبارة أخرى – الناحية الدولية – من باب التجوز فى استعمال مصطلح حديث لشرح مرحلة صاخبة من مراحل الحوادث الخاتمة على العصور الوسطى ، قبل أن يكون للدولية معنى فى مصطلح التاريخ والسياسة . ذلك أن انتهاء سلطنة المماليك باستيلاء العثمانيين على الشام ومصر ، وسائر الممتلكات السلطانية المملوكية أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، حدَثٌ چيوبوليتيكى ذو أهميات بالغة فى السياسة الجغرافية ، وهذا قبل أن يكون للسياسة الجغرافية معنى فى مصطلح التاريخ والسياسة . وأول هذه الأهميات أن انتصار العثمانيين على المماليك نقل محور ارتكاز الدولة الإسلامية لأول مرة فى التاريخ من غرب آسيا وشمال أفريقيا إلى ركن استراتيجى عظيم ، بأقصى الجنوب الشرقى من أوربا – أى مدينة القسطنطينية – وهى ركن جعلت منه الدولة البيزنطية عاصمة لها ، ومركزاً لحضارتها وثقافتها ، ورمزاً لسلطتها الأرثوذكسية على معظم بلاد المسيحية الشرقية ، وذلك لمدة ألف سنة تقريباً ، قبل أن يحلّ العثمانيون بالقسطنطينية محلّ البيزنطيين . ثم إن استيلاء العثمانيين على القاهرة ، وهذا هو موضع الأهمية الثانية ، لم يغير من محور الارتكاز فى الدولة الإسلامية فحسب ، بل نقل المذهب الفقهى الرسمى فى المجتمع المصرى من الشافعية إلى الحنفية ، وهذا كذلك حدَثٌ عميق الأثر فى جوف المجتمع المصرى ، وفى الحركة العلمية فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، ولا سيما العراق ، بعد أن

صار العراق كذلك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وثمة أهمية ثالثة أن مطالع القرن السادس عشر الميلادى فى الشرق الأوسط كشفت عن تنافس عنيف بين السنة والشيعة من أجل السيادة الإسلامية العليا ، فى سلسلة حروب دامية بين العثمانيين والصفويين فى إيران . واعتقدت سلطنة المماليك أنها سوف تفيد من هذه الحروب شيئاً ، لأنها ذات مصلحة كبيرة فى مسألة السيادة الإسلامية العليا ، بوجود الخلافة العباسية بالقاهرة ، أو فى قوص ببطن الصعيد ، منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادى . غير أن سلطنة المماليك لم تفد من هذه الحروب ، ولم ينلها من مراحل المنافسة العثمانية الصفوية سوى ذهابها هى من مسارح التاريخ إلى كتبه ، وأخيلة المؤرخين .

لم يقع ذلك إلا سنة ١٥١٧ م ، أى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . غير أن المتتبع لحوادث الشرق الأوسط من أوائل القرن الخامس عشر إلى أواسطه لا يستطيع أن يجد فيها ما يدلّ على احتمال وقوع هذا الأمر الفاصل فى التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، ولم يدُر فى خلد سلاطين المماليك أنفسهم أن العثمانيين بعد احتلالهم البلقان ودويلات آسيا الصغرى ، سوف يمدون أبصارهم نحو السلطنة المملوكية المهيبة الجناب ، ونحو غيرها من البلاد الإسلامية ، ليكون لهم السلطان الفعلى فى العالم الإسلامى كله ، بعد أن وسعوا رقعته فى شرق أوربا ، وبعد أن جعلوا من العاصمة الأرثوذكسية المسيحية عاصمة للمسلمين . ولم يكن باستطاعة سلاطين المماليك أن يروا شيئاً من ذلك قبل وقوعه ، بل كثيراً ما احتفل أولئك السلاطين بالقاهرة — حتى سنة ١٤٦١ م على الأقل — بانتصارات الدولة العثمانية أينما تكون ، كأنما هى انتصاراتهم . ودأب المؤرخون المصريون المعاصرون على إطراء كل سلطان من سلاطين "ابن عثمان" عند وفاته ، أو الإشادة بفاخر أعماله الحربية وغير الحربية مدة حياته ، فى أسلوبهم الطافح بالمحسنات اللفظية من بديع وبيان ، مما يشجى الأديب ، ويستريح إليه الواعظ ، ويتملّح به المؤرخ الذى لا يرى التاريخ إلا خليطاً من الأدب والوعظ والأخبار . ثم إذا اعتلى العرش فى إحدى الدولتين المملوكية والعثمانية سلطان جديد — فى القاهرة ، أو فى بروصة حيث أقام العثمانيون عاصمتهم

قبل إقامتها فى أدرنة ثم القسطنطينية فيما بعد — تبادلت العاصمتان المملوكية والعثمانية رسائل التهنئة والتبريك ، وإذا اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح قريب — أو بعيد — امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة ، مثلما حدث حين سقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين على عهد السلطان محمد الثانى ، وأصبحت منذئذ عاصمة أمبراطوريتهم الإسلامية التركية ، فى أوربا وآسيا وأفريقيا .

وبقيت الصداقة متبادلة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية ما بقيت أطرافهما ومنافعهما متباعدة ، فى مسافات جغرافية تكفل لهما عدم الاصطدام الاقتصادى ، أو السياسى . ثم أخذت هذه الصداقة تتحول إلى مغايرة وتحاسد من بعد سنة ١٤٦١ م ، ثم إلى مباغضة ومعاداة لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة سنة ١٤٨٣ م . وظلت هذه الحرب المملوكية العثمانية ثمانية أعوام حسوماً طويلة ، ولم يكن السلام الذى أعقب هذه الحرب وامتد من سنة ١٤٩١ إلى ١٥١٥ م ، سوى نفحة من نفحات الهدوء قبل العاصفة ، حتى إذا هبت هذه العاصفة هبوبها المنتظر اكتسحت المماليك وإمبراطوريتهم وسلطنتهم ، وأزالتهم وأزالتها من الوجود السياسى .

أما النذير الأول لهذه العاصفة الكاسحة ، فهو ما وصل إلى القاهرة أواخر سنة ١٥١٥ م ، من أنباء تخبر بأن السلطان سليما يعمل جاداً فى إعداد دار الصناعة العثمانية بالقرن الذهبى لبناء أسطول جديد ، وأنه يتجهز للهجوم على السلطنة المملوكية فى البرّ والبحر . ولم يكذب السلطان قانصوه الغورى هذه الأنباء التى يبدو أنها جاءت مصدقة لما عنده من معلومات سابقة ، فأخذ من ناحيته يستعد للحرب حتى جعل القاهرة تموج بالاستعداد ، وبات الناس ولا حديث لهم فى طول البلاد وعرضها إلا اقتراب يوم الفصل بين السلطان المملوكى وابن عثمان ، على قول المعاصرين .

هذا مجمل ما كان من تطور العلاقات بين سلطنتى المماليك والعثمانيين ، منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى إلى أوائل القرن التالى له . أما تفصيل هذا التطور ، فيتضح منه أنه لم يكن للاصطدام بين الدولتين بدّ — إن عاجلا

أو آجلا – وذلك على الرغم مما قام بينهما من علاقات المودة والوئام زمناً غير قصير . ففى عهد السلطان برسباى (١٤٢٢ – ١٤٣٨ م) بدت العلاقات بين الدولتين غاية الصفاء ، بفضل عداوة شاه رخ بن تيمورلنك لكل من برسباى ومراد الثانى، وابنه محمد الأول من قبل . وجاء رسل عثمانيون إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ م ، يحملون تهنئة السلطان العثمانى باعتلاء برسباى عرش السلطنة المملوكية فى العام السابق ، واغتبط برسباى بمقدمهم وبما أحضروه معهم من هدايا ثمينة ، ردّ عليها بأثمن منها حسبما يتطلبه الآيين المملوكى . لكن هذه الهدايا لم تصل إلى ابن عثمان ، إذ وقعت فى أيدى المتجرمة فى البحر الأبيض من أهل قبرص، وأخوانهم فى القرصنة وقتذاك . غير أن ذلك لم يمنع السلطان مراداً الثانى أن يبعث سنة ١٤٢٦ م إلى برسباى هدايا فخمة صحبة رسل عثمانيين مرة أخرى ، من باب التهنئة على ما أحرزت حملتان مملوكيتان من نصر فى جزيرة قبرص . وأقام أولئك الرسل بالقاهرة حتى عادت حملة مملوكية ثالثة من قبرص سنة ١٤٢٧ م ، مكللة بآيات النصر ، وفى ركابها عدد من الأسرى بينهم ملك القبارصة نفسه، وهو جانوس الثانى لوزنيان . وعندما جيء بهذا الملك عارى الرأس مكبلا بالسلاسل، كانت حضرة السلطان بالقلعة مزدانة بأولئك الرسل العثمانيين، وغيرهم من القصاد الذين صادف وجودهم بالقاهرة، وبذا شهد القريب والبعيد ما فعلت بسالة الجنود المملوكية خدمة للإسلام . ولعلّ الغيرة التى أثارها هذا المشهد هى التى أدت بالسلطان مراد الثانى أن يرسل إلى برسباى سنة ١٤٢٨ م خمسين أسيراً مسيحياً، بعد استيلائه على إحدى الإمارات البلقانية التى سمى العينى أهلها باسم الأنكيروز . وفى سنة ١٤٣٣ م ، وفد على برسباى بحلب اثنان من أبناء أخى مراد الثانى ، أحدهما صبى اسمه سليمان ، والآخر صبية اسمها شاه زاده ، فأنزلهما السلطان منزلا حسناً ، واصطحبهما معه إلى القاهرة ، وأسكنهما الدور السلطانية بالقلعة ، وأجرى عليهما الأرزاق اللائقة . وترك السلطان مراد الثانى أمر الصبيين إلى صديقه برسباى ، واطمأن إلى إقامتهما عنده بالقاهرة ، ولا سيما بعد أن علم أن برسباى خطب شاه زاده ليتزوج منها عند بلوغها سنّ الزواج ، وأن سليمان أخاها التحق

بحاشية يوسف بن برسباى. ثم تزوّج برسباى من شاه زاده الصغيرة سنة ١٤٣٦، وغدا مراد الثانى آمنا ، بدليل ما أرسل حين ذاك من هدايا سنية لنسيبه برسباى .

ثم جاء ارتقاء جقمق عرش السلطنة المملوكية (١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) عاملا إضافياً فى ازدياد الصداقة بين المماليك والعثمانيين ، ففضلا عما اشتهر به السلطان الجديد من الدين واللين نحو جميع إخوانه من ملوك المسلمين ، فإنه أثار إعجاب مراد الثانى بصرامته وصلابته فى أمور الشرع الإسلامى ، كما أثار محبته بالزواج من شاه زاده بعد وفاة زوجها الأول ، والمحافظة على أخيها سليمان بالقاهرة بعد وفاة يوسف بن برسباى. ولذا امتلأت رسالة التهنئة بالسلطنة ، وهى التى بعث بها مراد الثانى إلى جقمق سنة ١٤٣٩ م ، بعبارات كلها تبجيل وإجلال ، وفاتت هديته جميع الهدايا الواصلة إلى القاهرة من عند " ابن عثمان " زمن السلطان برسباى . ومنذئذ توثقت عرى المحبة بين السلطانين ، ودأب كل منهما على مبادلة صاحبه بنعوت الأخوة ، كما تبودلت الهدايا الفخمة بين البلاطين . وحينما انتصر العثمانيون سنة ١٤٤٤ م عند مدينة ڤارنا ببلغاريا الحالية على جيوش لادسلاس ملك المجر ، وهنيادى نائب ترانسلڤانيا ، أنفذ مراد الثانى عدة من أسرى هذا الانتصار ، ليدل بهم على ضخامة مغانمه وأسلابه وأنهابه ، وليبرهن للسلطان جقمق على مبلغ ما حقق الإسلام من فتوح على يد العثمانيين .

وغدا السلطان جقمق موضع إجلال محمد الثانى بعد مراد الثانى ، بدليل هديته التى أرسلها إلى القاهرة عند اعتلائه الأول للعرش العثمانى سنة ١٤٤٥ م ، حتى إذا اعتلاه نهائياً سنة ١٤٥١ م بعد وفاة مراد الثانى ، أسرع جقمق بالرد على هذه الهدية بما هو أحسن منها ، مع وفد خاص للتهنئة . وتوفى جقمق بعد ذلك بسنتين ، أى سنة ١٤٥٣ م ، وخلفه إينال على العرش المملوكى فى شهر مارس من تلك السنة ، وهو الشهر الذى أتم فيه محمد الثانى معداته لحصار القسطنطينية . ولذا لم يستطع السلطان العثمانى أن يوفد أحداً لتولية إينال سلطنته إلا بعد سقوط العاصمة البيزنطية فى أيدى العثمانيين . على أن إينال استقبل رسل محمد الثانى عند وصولهم القاهرة أحسن استقبال ، وأعلن

الفرح لسماعه بسقوط القسطنطينية ، بل أمر فنادى أن تحتفل القاهرة بذلك النبأ العظيم ، فأزينت الأسواق والحارات ، وأوقدت الشموع فى الشوارع والمآذن ، ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام . وفى سنة ١٤٥٦ م وصلت إلى القاهرة سفارة عثمانية ثانية ، برسالة تنبىء بانتصار محمد الثانى على الصربيين ، فى وقعة نوفوبردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوجوسلافيا الحالية . وتحدثت هذه الرسالة بما أفاءت الجرأة العثمانية على الإسلام من نصر مبين ، فى نثر مسجوع ، تتخلله سطور من القرآن ، وأبيات من شعر المديح والتفاخر ؛ وأرسل إينال ردًّا مشابهاً . وقبل أن يتحرك الأمير المملوكى قانى بك ، وهو الذى كلفه إينال أن يحمل هذا الرد إلى البلاط العثمانى — شاع بالقاهرة نبأ بوفاة محمد الثانى ، ثم ظهر كذب النبأ ، فأمر إينال بدق البشائر السلطانية بالقلعة ثلاثة أيام . ثم سافر قانى بك إلى القسطنطينية ، ورجع سنة ١٤٥٧م محملا بالهدايا الكثيرة .

غير أنه منذ آلت السلطنة سنة ١٤٦١ م إلى خشقدم اليونانى الأصل ، أخذت سحب العلاقات الصافية بين المماليك والعثمانيين تقتّم وتظلم وتحتك بعضها ببعض ، دون أن تدل عليها راعدة لبضع سنين . ذلك أن الدولة العثمانية منذ تمت لها السيطرة فى البلقان — بمهادنة إسكندر بك زعيم ألبانيا ، وإتمام الاستيلاء على شبه جزيرة المورة — بدأت تولى وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من إمارات آسيا الصغرى ، وأهمها إمارتا قرمان ودلغادر التركمانيتان المشمولتان بحماية السلطنة المملوكية ، وعليهما تعتمد السلطنة المملوكية فى شئون الأمن والدفاع فى أطرافها الشمالية . ولذا لم تلبث علامات التنافر بين العثمانيين والمماليك أن وضحت من أجل هاتين الإمارتين ، ولا سيما حين توفى إسحاق أمير قرمان وسليمان بك دلغادر سنة ١٤٦٥ م . ذلك أن الدولة العثمانية نصرت فى كل من الإمارتين شخصاً مخالفاً لمن قامت الدولة المملوكية بنصرته ، وفاز محمد الثانى فى الحالين على خشقدم ، بقيام پير محمد فى إمارة قرمان ، وبداق بك فى إمارة دلغادر ، لا لشىء سوى أنهما من صنائع ابن عثمان . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد الخطير ، بل زاده خطراً أن السلطان العثمانى أوى فى بلاطه كثيراً من رجال الدولة المملوكية

الذين فرّوا إليه استياءً من خشقدم ، وليس عجباً أن يدأب السلطان المملوكى بعد ذلك على مناوأة الحركات العثمانية بالجنوب الشرقى من آسيا الصغرى .

ولم يكن قايتباى الذى خلف خشقدم فى السلطنة المملوكية، سنة ١٤٦٧ م، أقلّ من سلفه مناوأة ومعارضة لتدخل العثمانيين فى شئون قرمان ودلغادر ، بدليل أن العلاقات بين الدولتين لم تتحسن إلا بعد أن اتفق الطرفان على الكف عن التدخل فى شئون هاتين الإمارتين . وبحسب هذا الاتفاق ظلت السلطنتان المملوكية والعثمانية فى وئام ظاهر ، فعاد محمد الثانى إلى إرسال الرسل إلى القاهرة وأخبار الانتصارات العثمانية فى أوربا ، كأيام إينال ، ووصل من عنده سنة ١٤٧٠ م رسول يخبر باستيلائه على عدة من الجزر التابعة للجمهورية البندقية بالأرخبيل اليونانى ، وغزو سفنه منطقة فريولى ومناطق أخرى للبنادقة على ساحل البحر الأدرياتى . وبينما تسير الجنود المملوكية بقيادة يشبك الدوادار فى طريقها من الشام إلى شمال العراق سنة ١٤٧٣م، لحرب أوزون حسن أمير ديار بكر ، جاء رسول عثمانى إلى المعسكر المملوكى يعرض استعداد السلطان محمد الثانى للاشتراك فى تلك الحرب . على أن انتصار الجنود المملوكية على أوزون حسن تمّ وشاعت أنباؤه فى مصر والشام، قبل أن يسهم العثمانيون بجيش أو بعض جيش، مما وعدوا به للمساعدة ضدّ عدوّ ذى خطر على المماليك والعثمانيين، سواء بسواء . ومع هذا لم يسع قايتباى إلا أن يرسل إلى محمد الثانى مبعوثاً خاصاً يشكره على استعداده لمساعدة الدولة المملوكية، وهكذا بقيت العلاقات الطيبة قائمة بين السلطنتين ، كما بقيت رسل المودة تتبادل بين القاهرة والقسطنطينية حتى وفاة محمد الثانى سنة ١٤٨١ م ، وقيام بايزيد الثانى فى السلطنة العثمانية .

لم يكن هنالك ما يدعو إلى الظن بأن العلاقات الطيبة بين السلطنتين توشك على النهاية، بعد قليل من السنين . غير أنه كان للسلطان بايزيد الثانى أخ صغير اسمه چم ، واعتزم هذا الأخ منازعة بايزيد الثانى على العرش بعد أن أفلت من براثن العملية الدموية (blood bath) التى دأب البلاط العثمانى على إتمامها، قبيل قيام كلّ سلطان جديد . وجمع چم جموعاً بغرب

آسيا الصغرى لإعلان الخروج على بايزيد الثانى ، ثم ما لبث أن لحقته الهزيمة ، فنجا بنفسه وأهله إلى مدينة قونية التى عرفته وأحبته منذ ولايته عليها فى سابق السنين ، ولكنها لم تجرأ على نجدته ضدّ بايزيد الثانى . ثم توجه چم أخيراً إلى القاهرة ، مع أمه وحريمه ، فرحب به قايتباى ، وبالغ فى إكرامه ، وأمده بجميع ما احتاجه من المال لتأدية فريضة الحج ، مما أغضب بايزيد وأثار حفيظته على الدولة المملوكية . وعلى الرغم من خرس المراجع هنا — عن إشارة تساعد على شرح تطور العلاقات المملوكية العثمانية على هذا النحو — فالواضح أن مسألة الأمير چم لم تكن كل ما هنالك من أسباب الجفوة ، بدليل إمعان قايتباى فى معونة هذا الأمير فيما عزم عليه منذ رجوعه من الحج ، إذ زوّده بالمال ، وأغراه بمفاوضة بايزيد الثانى فى أمر رجوعه إلى إسطنبول ، بشرط تعيينه سلطاناً على جزء من الدولة العثمانية ، أو مشاركته فى السلطنة دون حاجة إلى تجزئة أو تقسيم . غير أن بايزيد الثانى رفض المساومة فى هذا أو ذاك رفضاً باتاً ، وكتب إن إقصى ما يعدُ به أخاه چم إذا رجع إلى وطنه أن يعين له راتباً سنوياً لائقاً ، وأن يضمن له العيش فى أمان واطمئنان . أما شيعة چم ومؤيدوه بآسيا الصغرى ، فظلوا على إلحاحهم فى تحريضه مرة بعد مرة ليعود إليهم ، وليعلن الحرب على أخيه من قونية أو غيرها من البلاد العثمانية . ونزولا على إلحاح أولئك المؤيدين رحل چم عن القاهرة أوائل سنة ١٤٨٢ م ، دون أن يأخذ معه أحداً من أهله . وسمح له قايتباى بالرحيل على كره منه ، لأنه آثر بقاءه عنده ليضايق به بايزيد الثانى ، ولذا أذن له بالإقامة ما شاء بحلب حتى يجهز حملته الابتدائية المرجوة ، للزحف بها نحو إمكانيات مساعدته . غير أن هذه الحملة لم تكد تتحرك من حلب حتى باءت بفشل ذريع ، فتركها چم وأبحر إلى جزيرة رودس ، حيث أضافه رئيس الاسبتارية (Hospitallers) دوبوسون . ثم تلت هذه التطورات الفجائية مفاوضات بين بايزيد الثانى ودوبوسون ، وتمّ الاتفاق على أن يدفع السلطان العثمانى للاسبتارية مبلغاً قدره خمس وأربعون قطعة ذهبية بندقية سنوياً ، مقابل احتفاظهم على الأمير چم ورقابة حركاته . ولم يلبث دوبوسون أن أرسل چم إلى فرنسا ، ليقيم بأحد البيوت

الاسبتارية بها ، فوصل إلى ڤيلا فرانكا، وظلّ بها حتى أواخر سنة ١٤٨٨ م .

ولم يكد بايزيد الثانى يفرغ من أمر أخيه چم على هذا النحو الشائن حتى أخذ يعدّ العدة لحساب السلطنة المملوكية على مؤازرتها للأمير المنكود ، وزاد فى إصراره على حسابها أن قايتباى رفض السماح لبايزيد بإصلاح قنوات المياه بشوارع مكة ، وأنه لم يحرك ساكناً لمعاقبة جماعة من لصوص ميناء جده ، لنهبهم بعثة هندية تحمل متجراً للسلطان العثمانى ، فضلا عن خنجر ثمين ، وجملة من طرائف كريمة أخرى . ولذا أعلن بايزيد عزمه على إمداد علاء الدولة أمير دلغادر الخارج على السلطنة المملوكية وقتذاك ،وأمدّه سنة ١٤٨٣ م بجنود عثمانية استخدمها علاء الدولة إلى جانب جنوده فى الإغارة على نيابة ملطية التابعة لدولة المماليك بآسيا الصغرى . غير أن هزيمة هذه القوات المشتركة على يد المماليك سنة ١٤٨٤ م ، وعودة الجيوش المملوكية إلى قواعدها فى حلب يتلوها رتل من الأعلام العثمانية التى وقعت فى قبضتها ، زادت فى إصرار بايزيد الثانى على الانتقام من قايتباى ، وأرسل إلى علاء الدولة يحثه على مواصلة الحرب ، ويعدُه بالمساعدة اللازمة لذلك من المؤونة والرجال والمال .

أما السلطان قايتباى فأخذ يسعى لترضية بايزيد ، وذلك منذ علم بموقفه من علاء الدولة ، واستشار أمراءه فى أقرب الطرق والمسالك المؤدية إلى تحقيق هذه الترضية ، فقرّ الرأى على إرسال السياسى المملوكى القديم جانى بك حبيب إلى إسطنبول . وحمل حبيب معه إلى بايزيد الثانى هدية فخمة، ورسالة ودّية ، فضلا عن الخنجر الهندى الثمين ، وتقليد خليفى ، ورسالة شخصية من عند الخليفة العباسى . غير أن بايزيد رفض المصافاة ، بل أساء استقبال حبيب عامداً ، ولم تلبث جنود عثمانية أن هجمت على الحدود الشامية فى فجأة دون إنذار، حتى إنها استولت على طرسوس وأذنه ومدن أخرى، قبل أن يرتدّ حبيب إلى القاهرة خائب المسعى . وطير نائب حلب أخبار هذا الهجوم العثمانى إلى قايتباى ، فأنفذ حملة تضم من الجند أكبر عدد مستطاع ، بقيادة الأمير إزبك . وزحفت الحملة المملوكية فى سرعة إلى حيث وصل العثمانيون من الأطراف الشامية ، وأنشبت حرباً عنيفة ظلّ ميزانها مضطرباً بين الجانبين

حتى رجحت كفة المماليك، بعد معركة حامية قرب أذنة . ورجع إزبك إلى القاهرة فى موكب طويل من رءوس القتلى من العثمانيين ، بالإضافةإلى عدد كبير من الأسرى ، بينهم القائد العثمانى هرسك أحمد ، مكبلا فى أغلال المنتصرين .

غيرأن هذه الهزيمةالتى لحقت العثمانيين زادت نار العداوة المملوكيةالعثمانية ضراماً ، إذ أججت الانتقام فى نفس بايزيد الثانى ، وأدت به إلى إعداد حملة كبيرة وصلت أخبارها إلى قيتباى أربعة أشهر قبل وصول إزبك بجنوده المنتصرة إلى القاهرة . ولذا أرصد قايتباى جميع جهوده لإنفاذ حملة مماثلة للحملة العثمانية ، بل أعلن أنه سوف يقود هذه الحملة بنفسه . وإذ أفرغت مصاريف الحملات السابقة خزانة السلطان ، عمد قايتباى إلى جمع ما سوف يحتاج إليه من الأموال بطرق غير عادية ، فاستخلص من أراضى الأوقاف والأراضى الحرة المملوكة للأفراد دخل شهرين ، وأرغم أولاد الناس (وهم فئة أبناء الأمراء المتوفين ، وعليهم تأدية الخدمة الحربية فى الجيش المملوكى مقابل إقطاعاتهم الصغيرة) أن يدفعوا بدل خدماتهم مبالغ معينة ، كما ضرب على اليهود والمسيحيين وكبار التجار من المصريين المسلمين ضرائب استثنائية مختلفة . وبينما هذه الاستعدادات العسكرية تأخذ مجراها ، جاء الخبر إلى القاهرة بأن العثمانيين أخذوا يقرعون أبواب مدينة أذنة مرة أخرى ، ويهجمون على أسوارها من كل ناحية ، وأن مدينة أياس سلمت للجيش العثمانى ، دون قتال . غير أن حملة قايتباى كانت على وشك المسير فى أهبة واستعداد ، ولذا استطاع السلطان أن ينفذها من القاهرة منتصف مايو سنة ١٤٨٦ م ، بقيادة الأمير إزبك ، فجاءت حسب تقدير المعاصرين أكبر حملة برحت الديار المصرية منذ قيام الدولة المملوكية الثانية .

وعلى الرغم من ذلك كله يحتمل أن قايتباى لم يكره وقتذاك أن ينتهى ما بينه وبين بايزيد الثانى إلى صلح مقبول ، بدليل أنه أطلق سراح القائد العثمانى هرسك أحمد ، وعدداً من الأسرى العثمانيين بالقاهرة ، كما أوعز بنشر الأخبار عن اعتزامه القيام بإرجاعهم إلى وطنهم سالمين مكرمين . لكن هذه الحركة وما انطوت عليه من دبلوماسية لم تأت بنتيجة ، لأن قايتباى حاول من ناحية أخرى أن

يتسلم الأمير چم من ملك فرنسا لويس الثامن ورئيس الاسبتارية دوبوسون ، كى يستخدمه فى الضغط على بايزيد الثانى . ولم ينجح قايتباى فى محاولته هذه ، إذ جاءه رسولٌ من عند ملك فرنسا ، وليس معه سوى هدية فاخرة ، وكان وصول هذا الرسول الفرنسى إلى القاهرة فى يونيه، سنة ١٤٨٨ م .

وفى ذلك الشهر وردت الأخبار إلى قايتباى من حلب تنبئ بأن العثمانيين على بلدتى أذنة وأياس، وأنهم يقتربون من إسكندرونة ميناء حلب، فى أسطول عدته ستون سفينة ، ابتغاء النزول فى خليجها بجند يقطعون بها خط السير على إزبك وجيشه . غير أن عاصفة هبت على الخليج، فأفسدت محاولة العثمانيين ، وبذا استطاع إزبك أن يزحف شمالا فى غير صعوبة حتى ضرب الحصار على أذنة ، وهى التى احتشدت عندها معظم الجنود العثمانية . وظل ذلك الحصار ثلاثة أشهر حتى سلمت أذنه للمماليك، بعد أن أخلاها العثمانيون . وعاد إزبك عودة الظافر إلى القاهرة فى فبراير سنة ١٤٨٩ م ، وفى ركبه عدد من الأسرى الذى رضوا بعدئذ أن يدخلوا فى خدمة قايتباى ، وتقبلهم السلطان قبولا حسناً ، وأحلهم القلعة فى ثكنات سماها " العثمانية " ، نكاية فى بايزيد الثانى .

أما بايزيد، فاعتزم المضى فى هذه الحرب إلى النهاية، فلم يكد إزبك يبرح الشام إلى مصر حتى تحركت حملة عثمانية ثالثة جنوباً، صوب الحدود المملوكية بأطراف آسيا الصغرى . ولذا أنفذ قايتباى فرقة لحماية نيابة حلب ، على أن يتلوها بجيش كبير إذا اقتضت الحال . غير أنه مما لا يدعُ مجالا للشك أن قايتباى ظلّ برغم ذلك كله يعلل النفس بالآمال فى الصلح مع بايزيد الثانى ، لسوء حال الخزانة السلطانية . من الدليل على ذلك السوء ما أفضى به قايتباى حين ألحفت العساكر العائدة من أذنة فى طلب النفقة المعتادة ، إذ قال إن مصاريفه الحربية من سنة ١٤٦٧ م إلى سنة ١٤٨٩ م بلغت ٧,١٦٥,٠٠٠ دينار ، وأن الفرقة التى أنفذها أخيراً لحماية حلب كلفته وحدها ١٥٠,٠٠٠ ديناراً ، حسب تقدير ديوان الجيش . من ذلك يتضح كيف كان وصول رسولٍ عثمانى من قبل داود باشا وزير بايزيد الثانى ، فى مايو سنة ١٤٨٩ م ، مدعاة إلى الأمل فى الصلح . على أن قايتباى لم يشأ أن يقبل ما نصح به هذا

الرسول العثمانى من إرسال وفد مملوكى للمفاوضة فى إسطنبول ، نظراً لأنه هو الجانب الظافر ، ولأن مفاتيح القلاع والمعاقل التى استولى عليها العثمانيون لا تزال عند السلطان بايزيد الثانى ، ولا سبيل إلى صلح إذا لم يتسلم قايتباى هذه المفاتيح . ورأى قايتباى وقتذاك أن يدعم موقفه من بايزيد بمحاولة جديدة لإعادة الأمير جم إلى القاهرة ، وفاوض من أجل ذلك البابا إنوسنت الثامن الذى تسلم الأمير حديثاً من فرنسا . لكن قايتباى أخفق مثل إخفاقه الأول ، برغم استعداده لتلبية جميع ما يطلبه البابا ، ولو تعدّى ذلك إلى النزول عن بيت المقدس للبابوية ، أو فرنسا .

وكيفما كان الأمر ، فليس من المعروف أن الوزير العثمانى داود باشا أعلم السلطان بايزيد الثانى بالشروط التى جعلها قايتباى أساساً للصلح ، وإنما المعروف أن جنوداً عثمانية تجمعت قرب قيصرية الروم بآسيا الصغرى أواخر سنة ١٤٨٩ م ، وأن علاء الدولة دلغادر أرسل إلى السلطان قايتباى يعيّره بوصول فرقة من العثمانيين إلى بلدة كولك على مقربة من الحدود المملوكية . ولذا لم يمض على هذه الأخبار بضعة أسابيع حتى أنفذ قايتباى حملة كبيرة بقيادة الأمير إزبك ، على أن يقوم الأمير أولا باستطلاع ما تبقى من أمل فى الصلح . على أن قايتباى لم يغفل تصميم بايزيد على حرب ثالثة ، رغم ما يبدو من مشورة وزيره داود ، فأعد بالقاهرة جيشاً احتياطياً أعلن فيه على رءوس الأشهاد أنه سوف يقود ذلك الجيش بنفسه إلى الشام ، عند أول إشارة من إزبك بطلب المدد .

أما إزبك فسار بجيشه صوب الشمال ، حتى إذا صار على مقربة من الأطراف المملوكية بعث ماماى الخاصكى إلى معسكر الفرقة العثمانية عند كولك ، لمعرفة ما هنالك من أخبار الصلح . لكن العثمانيين قبضوا على ماماى وسجنوه ، وملّ أزبك الانتظار ، فتوجه بجيشه أخيراً صوبهم وأجلاهم عن كولك ، ثم زحف منها نحو قيصرية الروم ، حيث هزم الحامية العثمانية هناك هزيمة منكرة ، وأسر الكثير من قادتها . ثم انتهب إزبك قيصرية نفسها وأحرقها ، وأنزل بكثير من ضياعها وقراها مثلما أنزله بها من التخريب . ثم رجع إزبك بجزء من جيشه

نحو ماونده دون أن يشتبك فى قتال ، وعاد إلى مصر، ودخل القاهرة دخول الظافر المثلث الظفر ، فى نوفمبر سنة ١٤٩٠ م .

لم يطمئن قايتباى لتلك النتيجة السريعة الفاجئة ، إذ خشى مما سوف تثيره هذه الهزيمة الثالثة فى السلطان بايزيد الثانى من عزم على الانتقام ، وأوجس مما لدى العثمانيين من موارد عسكرية طائلة ، فعقد مجلساً بقبة يشبك (القبة الفداوية الحالية) فى يناير سنة ١٤٩١ م ، وشرح الموقف شرحاً وافياً بقوله للحاضرين : " إن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة مصر " حتى ينتقم لشرفه انتقاماً شافياً ، واقترح أن يتأهب للحرب بإعداد الرجال والمال . ولذا طلب قايتباى إلى قضاة القضاة الأربعة أن يوافقوه على جباية أجرة سنة كاملة عن جميع الأوقاف والأملاك الحرة بالقاهرة ومصر ، فوافقوه على جباية أجرة خمسة أشهر فقط ، بالإضافة إلى عدة جبايات أخرى بسائر مصر والشام . وانفض هذا المجلس ، وامتلأت القاهرة بأخبار الحرب ، واعتزم السلطان أن يخرج بنفسه على رأس الجيش المملوكى هذه المرة .

وبينا تجرى الألسنة بحديث الحرب المقبلة ولا ريب ، وقع ما لم يكن فى الحسبان ، وذلك فى أبريل سنة ١٤٩١ م ، حين عاد إلى القاهرة ماماى الخاصكى الذى أرسله إزبك رسولا إلى معسكر العثمانيين قرب قيصرية الروم . وجاء بصحبة ماماى قاضى قضاة بروصة ، وهو الشيخ على چلبى ، يحمل تفويضاً لعقد الصلح ، وبيده مفاتيح القلاع التى اشترط قايتباى إرجاعها إليه قبل أية مفاوضة . على أن قايتباى لم يشأ أن يظهر فرحه بهذا التطور نحو الودّ والصداقة بين الدولتين العثمانية والمملوكية، بعد هذه السنوات الجافية ، واكتفى بأن أخذ فى إطلاق سراح الأسرى العثمانيين بالقاهرة ، ولم يدّخر وسعاً لترحيلهم إلى بلادهم فى أحسن حال . ثم أنفذ قايتباى الأمير جانبلاط – وهو الذى أصبح سلطاناً فيما بعد – إلى بايزيد الثانى ليؤكد له عزمه على إنهاء ما بين الدولتين المملوكية والعثمانية من عداء . أما الشيخ على چلبى فبقى ضيفاً على قايتباى حتى تمّ ترحيل جميع الأسرى العثمانيين ، واتفق الفريقان فى تلك الأثناء على شروط الصلح ، ولم يبرح الشيخ القاهرة إلاّ أواخر سنة ١٤٩٢ م ، صحبة الأمير

ماماى الخاصكى . ورضى بايزيد الثانى بالصلح وشروطه ، لانصرافه وقتذاك إلى مشروع الاستيلاء على مدينة بلغراد .

وفى غضون سنة ١٤٩٤ م ، ذهب إلى إسطنبول رسول مملوكى من عند السلطان قايتباى ، وهو الشيخ عبد المؤمن الفارسى ، لتمكين حسن العلاقات السائدة بين الدولتين العثمانية والمملوكية بهدية حافلة ، من محتوياتها قماش فاخر وسبع وزرافة وببغاء حمراء اللون . ولم يعد الشيخ عبد المؤمن إلى القاهرة إلا أواخر السنة التالية ، لأنه رافق الرسل العثمانيين إلى مدينة نابلى ، حيث استقبلهم شارل الثامن ملك فرنسا غداة استيلائه على تلك المدينة الإيطالية ، وأخبرهم بوفاة الأمير چم فى منفاه الفرنسى .

ثم توفى قايتباى ، وصارت السلطنة لابنه محمد ، فرعى له بايزيد الثانى صداقة أبيه ، وشمل رسوله خاير بك الذى حمل النبأ بالسلطنة الجديدة إلى إسطنبول ببالغ الحفاوة والإكرام . وخاير بك هذا هو صاحب دور الخيانة العظمى التى أدت إلى زوال الدولة المملوكية على يد العثمانيين فيما بعد ، وربما كانت إقامته فى إسطنبول هذه المرة أول عهده بالدور الخائن الذى كلف مصر استقلالها ومركزها فى الشرق الأوسط ، والعالم الإسلامى كله لعدة قرون .
وقبل أن يبرح خاير بك إسطنبول ، أوائل سنة ١٤٩٨ م ، وصلت أخبار تنبئ بقتل السلطان محمد بن قايتباى على يد فئة من الأمراء المماليك ، بموافقة خاله قانصوه الذى خلفه فى السلطنة باسم قانصوه الأول . ويبدو أن بايزيد ، علم بهذه الأخبار وخاير بك فى حضرته يستأذنه السفر ، فصرفه فى غير مجاملة كأنما اتهمه بالمشاركة فى مؤامرة القتل ، وهدد بشن الحرب على السلطان الجديد ، لموافقته على قتل ابن صديقه قايتباى . غير أن قانصوه الأول أرسل رسولا لتبرئة نفسه عند بايزيد ، حتى إذا رجع ذلك الرسول إلى القاهرة صيف ١٥٠١ م كان قانصوه الأول مخلوعاً من السلطنة . ثم جاء إلى السلطنة المملوكية چانبلاط ، ثم طومان الأول ، ثم قانصوه الغورى ، وكل أولئك فى مدة لا تعدو ثمانية عشر شهراً . لكن شاءت المقادير أن يظل قانصوه الغورى على عرش السلطنة المملوكية مدة خمس عشرة سنة ، وأن تشهد السنوات الأولى من عهده انقلاب

الصداقة العثمانية مرة أخرى إلى عداء مستحكم الحلقات .

ومن مطالع ذلك الانقلاب أن قاصداً مملوكياً لم يذهب إلى إسطنبول لإعلام بايزيد الثانى بسلطنة قانصوه الغورى ، وأنه لم يأت أحد من عند بايزيد إلى القاهرة للتهنئة والتبريك بالسلطنة الجديدة ؛ وهذا وذاك على غير المألوف بين دولتين صديقتين . ومرجع ذلك — فيما يبدو — فرار الأمير دولتباى نائب الشام إلى البلاط العثمانى ، عند سماعه بخلع قريبه طومانباى الأول على يد قانصوه الغورى . على أن الغورى لم يحرك ساكناً فى طلب دولتباى ، مما أثار بعض حفيظة بايزيد ، بدليل وصول رسول عثمانى إلى القاهرة أواخر سنة ١٥٠٢ م بشكاية من المتاعب التى يلقاها التجار العثمانيون بالإسكندرية على يد على بن الجود وكيل السلطان ، واهتمام الغورى بتلك الشكاية اهتماماً أدى به إلى إقالة وكيله بالثغر ، وتجريده مما عداها من الوظائف والأموال ، فضلا عن ترضية التجار العثمانيين بإزالة أسباب متاعبهم . وفى مقابل ذلك تسلم الغورى نائبه دولتباى ، وبدت العلاقات العثمانية منذئذ إلى نهاية عهد بايزيد الثانى سنة ١٥١٢ م على أحسن ما تكون من الصفاء ، برغم ما سبق ظهوره فى الأفق السياسى من كدر ، حين صارت السلطنة إلى قانصوه الغورى .

ثم اعتلى سليم الأول عرش بنى عثمان ، وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، وفى عزمه توسيع الإمبراطورية العثمانية فى الشرق على حساب الدول المجاورة . ولم يكد ينتهى سليم من بعض المراسيم الدموية التى دأب العثمانيون على تنفيذها ، بقتل أخويه الكبيرين قرقد وأحمد ، وأولادهما وأولاد أخواتهما كذلك تأميناً لعرشه ، حتى اتجه إلى محاربة إسماعيل الصفوى شاه إيران ، لتصفية ما بين العثمانيين والصفويين من مختلف المشاكل ، وهى تصفية لا بد منها لاختلاطها بمسائل السنة والشيعة والسيادة الإسلامية العليا . ووقع المصاف بين العثمانيين والصفويين فى أغسطس سنة ١٥١٤ م ، عند سهل تشالدران الواقع بين العاصمة تبريز وبحيرة أرمية ، حيث حطم سليم جيش إسماعيل ، وأعقب انتصاره بالاستيلاء فى العام التالى على تبريز ، فضلا عن كثير من بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين ، وتبليس وحصن كيفا ، وديار بكر وأورفه ، وماردين والجزيرة ، وجميع الأراضى الجنوبية حتى

الرقة والموصل ، وهى بلاد ذوات علاقات اقتصادية وسياسية قديمة بدولة المماليك. لكن ذلك كله لم يهدم مقاومة الصفويين ، بل ظلت المناوشات بين العثمانيين والصفويين بضع سنين . على أن موضع الأهمية هنا أن هذه الاستيلاءات جعلت العثمانيين قاب قوسين أو أدنى بكثير من أطراف الدولة المملوكية بشرق الشام وغرب الفرات ، وهما ناحيتان هامتان لدولة المماليك فى مصر والشام ، لاعتبارات سياسية واقتصادية ، فضلا عن اعتبارات دينية .

ثم كان أن قضى سليم ، سنة ١٥١٥ م ، على علاء الدولة دلغادر أمير الدولة الدلغادرية المشمولة بحماية السلطنة المملوكية ، إذ استولى على جميع أراضيه بما فى ذلك عاصمته أبلستين ومرعش وغيرهما من البلاد ، وبات العثمانيون على مقربة من الأطراف المملوكية كذلك من ناحية آسيا الصغرى ، أى أن دولة المماليك أمست معرضة للهجوم من ثلاث جهات . وأحسّ السلطان الغورى بالخطر المهدد لإمبراطوريته تهديداً مثلثاً وشيكاً ، على حين كان الشاه إسماعيل يعمل على الثأر من سليم الأول ، ويبحث عن حليف يستعين به ضدّه بين الدول المسيحية والإسلامية سواء ، حتى وجد من السلطان الغورى استعداداً لمؤازرته فى تحقيق أمنيته ، بناء على كتاب ورد إليه من القاهرة على يد الشيخ الشانجقى العجمى نديم الغورى . وحدث وقتذاك أن أحد أولاد الأمير أحمد أخى سليم ، واسمه قاسم ، هرب إلى حلب بناء على اتفاق — أو غير اتفاق — سابق مع نائبها المملوكى ؛ فآواه الغورى . ومن ثم انقلبت الصداقة المشوبة بين العثمانيين والمماليك إلى عداوة واضحة ، وأضحى كل من سليم الأول وقانصوه الغورى يتربص بصاحبه الدوائر ، هذا لاستخفافه بالحماية المملوكية على إمارة دلغادر وضمها إلى إملاكه ، دون مجاملة أو اعتبار ، وذاك لعطفه على الشاه إسماعيل وإيوائه أميراً عثمانياً عنده ، برغم ما فى ذلك من تهديد للعرش العثمانى .

ولا أهمية بعد هذا هنا لمناقشة الآراء المختلفة حول تاريخ التفكير العثمانى فى الهجوم على الدولة المملوكية ، بالقياس إلى أهمية الأخبار المتواترة أوائل سنة ١٥١٦ م بأن إسطنبول قائمة على قدم وساق ، استعداداً لحرب الصفويين فى البرّ والبحر . وصدّق الناس تلك الأخبار على علاتها ، ما عدا الغورى الذى زكن بأن دولة

المماليك هى المقصودة بتلك الاستعدادات ، وأن سليما الأول أذاع قصة إزماع الحرب ضدّ الصفويين من باب التعمية وذرّ الرماد ، فضلا عن الدعاية بأن الدولة العثمانية تعمل دائماً على حرب الشيعة ودولتهم فى إيران . ولم يكن الغورى بعيداً عن كبد الحقيقة فى زكنه وحسابه ، لأنه لا يستقيم عقلا (ولا بد أن خطر له هذا الخاطر) أن يعدّ سليم الأول قوات هائلة فى البرّ والبحر ، وتكون بلاد الصفويين — أو ما تبقى منها — هى المقصودة بتلك الاستعدادات المزدوجة. لذا أخذ الغورى منذ أوائل سنة ١٥١٦ م يعدّ العدة من جانبه ، فطفق أولا على تنظيم مشاكله الداخلية التى نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية ، من الجلبان الأحداث والقرانيص القدماء ، بسبب تأخر رواتبهم. وهال الغورى أن ينغمس مماليكه فى الفتنة ، مع ما بالدولة من حاجة إلى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة ، ومع ما بها من فقر وارتباك مالى ، بسبب استحواز البرتغاليين على معظم تجارة الهند وأرباحها ، منذ أواخر أيام قايتباى . وضاق الغورى ذرعاً بتلك الفتنة ، حتى أنه هجر الدور السلطانية بالقلعة ، واحتجب بقصر المقياس بالروضة ثلاثة أيام ، ولم يرجع إلى القلعة إلا بعد أن تدخل الأمراء بينه ومماليكه ، على قاعدة دفع الرواتب المتأخرة . غير أن الأمور لم تتعدل لمصلحة المماليك السلطانية نتيجة ذلك التدخل ، فعمدوا إلى التهديد بالثورة مرة أخرى ، وغضب الغورى من تلك الحركات الصبيانية والعثمانيون على الأبواب ، فدعا إليه أغاوات الطباق ، وهم رؤساء الثكنات المملوكية بالقلعة ، ووبخهم بقوله " . . . لا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب . . . " .

وبعد ذلك بقليل وصلت أخبار إلى القاهرة تنبئ باعتزام العثمانيين الهجوم على الأطراف المملوكية ، فلم يبق لدى الغورى ألا أن يترضى مماليكه بصرف المتأخر من الرواتب . ومن ثمّ عكف على الاستعداد للنفير العام ، فاستدعى العسكر إلى ديوان الجيش ، وفرّق فيهم الأموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب ، وأنفذ إلى قلعة قايتباى بالإسكندرية مائتى مكحلة وعدداً كبيراً من المدافع والصوان ، لرمى الأسطول العثمانى إذا هو اقترب من الساحل ، ومقاومة الجيوش العثمانية إذا هى استطاعت أن تنزل إلى البرّ .

وفى السادس من مارس سنة ١٥١٦ م ، وهو الموافق لليوم الأول من صفر من السنة الهجرية (٩٢٤ هـ) ، طلع الخليفة العباسى والقضاة الأربعة إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر الجديد على العادة ، فطلب إليهم أن يستعدّوا للسفر معه على رأس الجيش إلى حلب . ثم أخذ الغورى فى استعراض العسكر ، فلم يعف منهم سوى المماليك الصغار الكتابية ؛ وجمع إليه الأمراء ، فلم يستثن من الخدمة منهم إلا الأقلين من الشيوخ والعواجز . وغادر القاهرة أواخر ذلك الشهر أخو علاء الدولة دلغادر وأولاده الذين جاءوا إلى مصر فى حماية السلطان ، منذ وفاة علاء الدولة ، فتوجهوا إلى بلادهم لجمع العساكر من التركمان ، والانضمام إلى الجيش المملوكى عند وصوله إلى حلب . وقبيل رحيل هؤلاء أرسل السلطان إلى مشايخ العربان بأعمال مصر والشام ، ليطلب إليهم المدد من العشير والفرسان للخروج معه .

وبينا يستكمل السلطان تلك الإجراءات التى جعلت أحوال القاهرة تبدو فى نظر ابن أياس " مثل يوم القيامة " ، وصلت رسالة توجب الالتفات من عند خاير بك نائب حلب الذى يرجع اتصاله بالسلطان سليم الأول إلى زمن قبل ذلك لم تستطع تحديده المراجع ، وهو على أية حال ليس أول اتصال من نوعه بين خاير بك والعثمانيين . وملخص هذه الرسالة أن السلطان مخدوع فيما لديه من الأخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، وأنه ليس ثمة شك (وعند خاير بك الخبر اليقين) أن سليما الأول يستعد لحرب الشاه إسماعيل الصفوى . وأضاف خاير بك — من باب السبك لأكذوبته الخائنة — وصفاً طويلا لتاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين ، وذيّله بمعلومات مفصّلة عن القوات التى أعدّها إسماعيل لدفع الزحف العثمانى . لكن الغورى لم ينخدع برسالة خاير بك ، بل استدعى مجلسا حربيًّا لتقليب الأمر مع أمرائه قبل الشروع فى السفر ، وظل المجلس منعقداً منذ الصباح الباكر إلى الظهر ، وانجمع الرأى فى وجوب إرسال حملة كبيرة إلى حلب على أية حال ، استعداداً لما عساه أن يكون ، على أن يصحبها السلطان بنفسه ، ويبقى على رأسها لمراقبة ما سوف تتمخض عنه الحرب (إن حرب وقعت) بين سليم وإسماعيل ، إذ المعقول المنتظر أن يتحول الظافر فيها إلى الهجوم على الأراضى المملوكية بأطراف الشام . وبعد ذلك بأيام وردت على الغورى رسالة من عند

الأمير سيباى نائب دمشق تشير بأنه لا حاجة إلى مسير الجيوش المملوكية إلى حلب ، لأن سليما متجه فعلا بقواته لمحاربة الشاه إسماعيل ، وهو بلا شك بعيد عن التفكير فى الهجوم على الأراضى المملوكية . وسرّ هذه الرسالة أن خاير بك اتصل قبلا بالأمير الطيب القلب سيباى ، حتى أقنعه باستحالة تفكير العثمانيين فى معاداة المماليك غداة تجهزهم لحرب الصفويين ، فرأى الأمير الأمعة النقوع أن يكتب ما كتب إلى السلطان حرصاً على المصلحة العامة . غير أنه لما كان الغورى سيئ الظن بالأمير سيباى ظلماً منذ سنين ، أضافت هذه الرسالة إلى ظنه سوءاً على سوء ، كما أكدّت شكوكه فى نوايا العثمانيين . ولذا لم ينتصف شهر مايو من تلك السنة حتى كانت الجيوش المملوكية على أهبة للخروج إلى الريدانية — بظاهر القاهرة — استعداداً للمسير بقيادة السلطان الغورى إلى الشام .

وقبيل رحيل الغورى إلى المخيم السلطانى بالريدانية ، وصل نديمه العجمى الشانقجى إلى القاهرة ، وأخبر بوصول الفيلة التى كلفه السلطان بمرافقتها إلى حلب لاستخدامها فى القتال ، ولا بد أنه أخبره كذلك بمصير الكتاب السرّى الذى أمره بإيصاله إلى الشاه إسماعيل . غير أن المراجع التى تستمدّ منها هذه الحقبة من التاريخ المصرى لا تذكر شيئاً عن هذا الكتاب السرّى ، أو عن ردّ الصفوى . وإذا كان من المقبول عقلا أن الغورى وعد إسماعيل فى كتابه بالمساعدة إن توجهت الجيوش العثمانية نحو بلاده ، فليس من المعروف ما وعد به الشاه من ناحيته إذا اتجه سليم صوب الأراضى المملوكية ، وهو ما حدث فعلا ، وذلك دون أن يحرك إسماعيل ساكناً من قريب أو بعيد .

ثم لبث الغورى بالريدانية بضعة أيام على العادة قبل الرحيل ، ووصلته هناك رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب ، ومعها كتاب من السلطان سليم الأول . وجاء فى رسالة خاير بك أن رسولاً عثمانياً وفد عليه ونزل فى ضيافته انتظاراً لوصول رغبة السلطان إلى المفاوضة فى الصلح . واشتمل كتاب سليم الأول على كثير من العبارات التى تكفل إدخال السرور إلى قلب الغورى وأمرائه ، وتبعث فى نفوسهم الأمل فى السلام ، لو أن الغورى وامراءه اختاروا أن يكونوا من زمرة البسطاء المجانين . وخلاصة هذا الكتاب العثمانى بعد السلام والإكرام ، وذكر

ألقاب السلطان الغورى وتلقيبه بالوالد ، والدعاء له بطول العمر ، أن سليما لم يهجم على أراضى علاء الدولة دلغادر إلا بإذن السلطان ، وأن علاء الدولة أصل النزاع بين بايزيد الثانى وقايتباى ، مما أدى إلى ما وقع بين الدولتين العثمانية والمملوكية من حروب سابقة ، وتسببت عنه أضرار كثيرة لبلاد السلطان ، ولذا فإن موته أجدى على السلطان من بقائه على قيد الحياة . أما على بك دلغادر الذى أقامه سليم بعد علاء الدولة ، فإنه يترك أمر إبقائه أو عزله بين يدى السلطان . وأما تجار الأجلاب المملوكية ، وهم الذين شكا السلطان الغورى من تعويقهم ببعض بلاد آسيا الصغرى ، فالسلطان سليم لم يعوقهم أو يمسهم بأذى ، وإنما هم الذين تضرروا من التعامل بنقود مصر من الذهب والفضة لفسادها وزيفها ، وأنهم هم الذين رفضوا الذهاب بمشترياتهم من الأجلاب إلى القاهرة . ثم ذكر سليم فى كتابه أنه مستعد لإرجاع الأراضى التى أخذها من علاء الدولة ، وأنه يرحب بتلبية جميع ما يطلبه إليه السلطان . غير أن الحوادث دلّت على أن هذه السطور المعسولة لم تكن سوى سلسلة من الأكاذيب التى دبّر نسجها سليم الأول ، وصنيعته الخاسر خاير بك ، ولم يمض يومان على وصول ذلك الكتاب حتى سار الغورى إلى الشام ، بعد أن خلع على طومانباى الدوادار خلعة النيابة عنه فى السلطنة بالقاهرة ، مدة غيبته .

وعند غزة علم السلطان لأول مرة بخيانة خاير بك ، فرفض تصديق التهمة ، بل ردّ صاحبها — وهو سيباى — ردًّا جافياً ، لأنه لم ينزل عن التشكك فى إخلاصه. ثم وصل السلطان إلى حلب فى يوليه سنة ١٥١٦ م ، واتخذت الجيوش المملوكية من بيوتها مساكن ضاقت بهم وبالحلبيين معاً ، مما كان له أسوأ الأثر فى تطور الحوادث المستقبلة. وجاء إلى معسكر الغورى بحلب رسولان من معسكر سليم الأول بالأبلستين ، وانضما إلى الرسول النازل بضيافة خاير بك ، وطلب الجميع المثول بين يدى الغورى للمفاوضة فى الصلح . وكان سليم بالأبلستين منذ الشهر السابق لوصول الغورى إلى حلب ، وأراد المطاولة بحديث الصلح ريثما تنتظم قواته إلى قوات وزيره سنان باشا الصدر الأعظم . ولم يخف ذلك على الغورى ، غير أنه رأى أن يظهر شيئاً من الرغبة فى السلم ، فاكتفى بالتحدث إلى الرسل الثلاثة فى لطف العاتب على مولاهم إنه اعتدى

على منطقة النفوذ المملوكى، بالاستيلاء على بلاد دلغادر، وأن الصلح لا بد منه بين الدولتين العثمانية والمملوكية. وأجاب الرسل بأنهم أتوا من قبل السلطان سليم مفوضين لعقد الصلح الذى يرضى عنه السلطان، والحقيقة أنهم أتوا لحبك الخطة التى دبرها سليم، وهى إحاطة الغورى بجوّ من السلامة الزائفة، حتى يأخذه العثمانيون على غرّة. ولذا تطوّر الحديث إلى الكلام فى هدف الجيوش العثمانية بعد الأبلستين، فأكد الرسل للسلطان الغورى أن مولاهم لا يريد من الدنيا إلا تدمير قوة الشاه إسماعيل تدميراً نهائيًّا، ولا يطلب من السلطان سوى البقاء على الحياد أثناء القتال. لكن الغورى بَصُر بما فى قرارة الحديث من غش وخديعة، فرأى أن يخلع على الرسل خلعاً سنية، وأن يردّهم إلى سلطانهم بكتاب يعرض فيه التوسط لإصلاح الأمر بين إسماعيل وسليم. وأعقب الغورى ذلك بإرسال الأمير مغلباى كاتم السرّ، ليؤكد للسلطان سليم رغبته فى الصلح، واهتمامه للتوسط بينه وبين إسماعيل. ثم ثنى الغورى بأمير آخر اسمه كرتباى، وأرسل معه هدية فخمة للسلطان سليم، كما أوعز إلى أحد القضاة بأن يجعل موضوع خطبة الجمعة فى المسجد الكبير بحلب حول الأحاديث النبوية التى تحض على عدم النفرة بين المسلمين.

ومع هذا كله استدعى الغورى أمراءه جميعاً، وحلّفهم على القرآن فى حضرة الخليفة العباسى، بأنهم لن يخونوه فى ساعة الشدة، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشرّ من سليم. ثم أمر الغورى باستعراض الجند بكامل عدتهم الحربية، وأخذ عليهم أغلظ الأيمان والمواثيق على طريقة المماليك، بأن جعلهم يمشون فرقة بعد فرقة تحت السيوف المعروشة فوق الرءوس. وخلع الغورى بعد ذلك على قاسم بك ابن الأمير أحمد، وأعلن حمايته له تحدياً للسلطان سليم.

ولم يكن السلطان سليم فى تلك المرحلة بحاجة إلى التحدى، كما يكشف عن موقفه، إذ وردت الأنباء بعد يوم من رحيل كرتباى بأن سليما لم يقبل أن يتوسط الغورى بينه وبين الصفوى، وأنه ألقى القبض على مغلباى ووضعه مقيداً فى الحديد، وأنه تحرك بجيشه نحو عينتاب بعد استيلائه على ملطية والبهنسا وكركر. وعلم كرتباى بذلك كله حين وصوله إلى عينتاب، ورأى طلائع الجيوش العثمانية

وهى تقترب من ضواحيها ، فأسرع راجعاً إلى حلب . أما الغورى فإنه استدعى أمراءه وحلفهم مرة ثانية على الحرب حتى النهاية ، ولم يستطع سيباى أن يحتمل الموقف ، لعلمه أخيراً بأمر خاير بك ، فهجم على خاير بك وأمسك بتلابيبه . وصاح مناشداً الغورى بقوله " يا مولانا السلطان ، إذا أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال ". فتدخل چانبردى الغزالى نائب حماة ، وهو شريك خاير بك فى الغدر والخيانة ، ونصح للسلطان بعدم الإصغاء إلى هذه التهم ، لئلا يفتّ ذلك فى عضد سائر الأمراء . ولم يكن الغورى بحاجة إلى النصيحة ، فإنه لم يعتقد ألبتة فى إخلاص سيباى ، وبذا ظل خاير بك حرًّا طليقاً ، ليتم دوره المشين .

وفى تلك الساعات الحرجة وصل مغلباى " فى حال نحس " ، على قول ابن إياس ، " بزنط أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عتيق دنس ، وهو راكب على إكديش هزيل " . وأخبر مغلباى السلطان الغورى أن سليما رفض الحديث فى الصلح وقال له : "قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق" ، وأنه لم يكتف بوضعه فى الحديد فحسب ، كما وصل إلى مسامع السلطان ، بل قصد أن يحلق لحيته ، وقدمه إلى الشنق ثلاث مرات ، لولا شفاعة بعض وزرائه مرة بعد مرة ، ثم حمّله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه ، إمعاناً فى الإهانة . وكان الغورى قبل قدوم مغلباى لا يصدق أن رسوله تعرض لأنواع الإخراق على يد سليم ، فلما رآه فى هذه الحال علم أن لا مناص من الحرب ، وأصدر أمره بالزحف .

وأول من غادر حلب من الجيوش المملوكية قبائل التركمان بقيادة عبدالرزاق دلغادر الذى أعلنه السلطان أميراً على أبلستين وبلاد دلغادر كلها قبل الرحيل ، ثم تلا ذلك مشاة المماليك ، وتبعها معظم الوحدات الشامية بقيادة الأمراء مقدمى الألوف ، ومنهم سيباى وخاير بك وچان بردى الغزالى . وفى اليوم العشرين من أغسطس سنة ١٥١٦ ، تقدّم الغورى على رأس الحلقة السلطانية ، ولحق بالجيش عند جيلان ، وزحف الجميع صوب قرية زغزغين وتل الفار إلى دابق ، وهى كذلك قرية من قرى بلدة عزاز . وأخذ الجيش المملوكى يرتب صفوفه ، والسلطان الغورى يصدر أوامره استعداداً للمعركة حتى اليوم الثالث والعشرين

من الشهر . وعند مطلع الفجر من اليوم التالى رؤيت العساكر العثمانية على مسافة من دابق ، وفى مقدمتها عدد من المكاحل محمولة على عجلات تجرّها الجند . فلم يؤخذ الغورى على غرة ، بل خرج للقتال ممتطياً فرساً ، وعلى رأسه عمامة خفيفة ، وعلى كتفه عباءة من حرير ، وبيده طَبَر . وركب الخليفة عن يمينه فى ملابس مشابهة ، من عمة وعباءة وطَبَر ، وعلى رأسه علم الخلافة. ومشى حول السلطان جماعة من الأشراف يحملون على رءوسهم أربعين مصحفاً فى أكياس من الحرير الأصفر ، ومن ورائهم جماعة من مشايخ الطرق تحفّ بهم أعلامهم الخاصة . وإلى جانب الخليفة سار الأمير العثمانى قاسم بك تحت علم من الحرير الأحمر ، وعلى مسافة عشرين ذراعاً خلف الغورى رفرف العلم السلطانى ، ومشى تحته مقدم المماليك ، والقضاة الأربعة ، وأمير زردكاش . وكان على رأس الميمنة سيباى الطيّب المفترى عليه ، وعلى رأس الميسرة خاير بك الخائن ؛ وتولى القلب سودون العجمى .

ثم بدأت المعركة بهجوم خاطف قامت به جنود الميمنة والقلب بقيادة سيباى وسودون ضد العثمانيين الزاحفين ، فنزلت بالصفوف العثمانية خسائر عديدة فى الرجال ولا سيما رماة البندق. واستولى المماليك على سبعة أعلام ، وعدد من المكاحل النارية ، حتى إن السلطان سليما فكر فى التقهقر لتنظيم قواته من جديد . وفى هذه الساعة الحرجة أشاع خاير بك بين المماليك القرانيص — وهم الذين ثبتوا للمكاحل العثمانية حتى استولوا على عدد منها — أن السلطان أمر مماليكه الأجلاب ألا يتقدموا للقتال حتى يصدر أمره إليهم ، وفسّر القرانيص ذلك بأنه خطة دنيئة من السلطان الغورى ، ليجزيهم وحدهم بما ارتكبوا فى حقه فى سابق السنين ، فكان ذلك كافياً لتثبيط الهمم . وبينا تعمل هذه المظنة عملها المشؤوم قُتل سيباى وسودون ، فولى جنود الميمنة والقلب الأدبار . وتبع ذلك فرار خاير بك من الميدان ، عملا باتفاقه السيئ مع السلطان سليم ، إذ تظاهر بالقتال مدة ، ثم تقهقر بجنوده بعد أن أشاع شائعة أخرى ، وهى أن السلطان الغورى مات قتيلا . وبذا انهارت قوة المماليك ، وتفرقت الجند شذر مذر ، تحت نيران المكاحل العثمانية الباقية . وعبثاً حاول الغورى أن يوقف تيار الفرار ، ونادى فى

الجنود المدبرة " يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة " ، لكن هيهات أن يسمع له أحد ؛ وسرعان ما وجد نفسه وسط المعمعة فى فئة قليلة من الخاصكية . ثم استطاع أمير زردكاش أن يشق طريقه إلى حيث وقف الغورى ، فأخذ العلم السلطانى وطواه وأخفاه ، خشية أن يستولى عليه العثمانيون . ثم تقدم أمير زردكاش إلى السلطان وقال له " يا مولانا السلطان! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج بنفسك ، وادخل إلى حلب " . وكان لهذه الكلمات وقع شديد فى قلب الغورى ، فأصيب بفالج أبطل جنبه الأيسر وأرخى فمه ، على قول ابن إياس . وطلب السلطان الغورى ماء ، فجاءوه به فى كأس ذهبية شرب منها قليلا ، ثم لوى عنان فرسه ليهرب ، وسار بضع خطوات سقط بعدها عن الفرس إلى الأرض ميتاً ، من صدمة الهزيمة .

وسرت أنباء الفاجعة سريان البرق بين العثمانيين ، فتقدموا فى سرعة قبل أن يستطيع أحد نقل جثة السلطان إلى مكان أمين ، وقضوا على الجنود الذى ظلوا إلى جانب الغورى حتى اللحظة الأخيرة . ثم تقدم السلطان سليم بجنوده واستولى على معسكر المماليك .

لم يبق لدى المماليك الفارين وقتذاك سوى أن يلتجئوا إلى حلب ، غير أن الحلبيين الذين أذاقهم المماليك أنواع الضيق والأذى والقسوة أثناء إقامتهم بحلب ، لم يسمحوا لهم بدخول المدينة ، بل طردوهم عن أبوابها ، ولذا تحولوا صوب دمشق ، فوصلوها حفاة عراة فى أسوأ حال ، وظلوا بها أياماً حتى لحقت بهم أمثالهم من الفلول والمناسر المنكوبة . ومن ثم توجهت جموع المماليك المهزومة — ماعدا الأمراء — إلى القاهرة ، فدخلوها أرسالا متقطعة أوائل أكتوبر سنة ١٥١٦ م . وقبل ذلك بشهر تقريباً وصلت أنباء دابق إلى مسامع القاهريين ، وجرت الألسنة بالشائعات والنوائب الداهمة ، وأخذ طومانباى نائب الغيبة يتنقل فى الأحياء والحارات لينشر بين الناس شيئاً من الطمأنينة ، ويدعوهم إلى حفظ الأمن والنظام ، كما لو كان سلطاناً . ثم تحققت أخبار مقتل الغورى من أفواه العائدين من دابق ، فبدا اختيار طومانباى أمراً لا محيص عنه ، واتفق الأمراء الموجودون بالقاهرة على اختياره ، دون أن يفكروا فى سلطنة محمد بن الغورى ، حسبما جرت به سنة المماليك

عند اختيار سلطان جديد . وتمنع طومانباى ثم قبل على العادة ، ونودى به سلطاناً ، فى ١١ أكتوبر سنة ١٥١٦ م .

وفى صباح اليوم التالى وصل چانبردى الغزالى فى فئة من الأمراء الذين تخلفوا قبلا بدمشق ، فاستاء لقيام طومانباى فى السلطنة . وعزم على إتمام الدور الذى بدأه الخائن الأول خاير بك .

وفى هذه الأثناء زحف السلطان سليم جنوباً ، واستولى على كثير من المدن فى غير عناء ، بعد أن شاعت أخبار دابق . فسلمت له حلب دون مقاومة ، وعسكرت جنوده بها ثمانية عشر يوماً فى قوق ميدان ، حيث عسكر الغورى من قبل . ثم استأنف سليم سيره إلى دمشق ، عن طريق حمص وحماة ، فسلمت له دمشق بعد مفاوضة قصيرة قام بها خاير بك نيابة عن العثمانيين . وأقام سليم بدمشق قرابة شهرين ، وأمر ببناء مسجد على قبر الشيخ الصوفى محيي الدين بن العربى ، ولم يترك دمشق حتى أكمله .

وانهالت أخبار هذه الانتصارات على رءوس أهل القاهرة ، وأرجفت الأنباء يوماً بعد يوم بقرب الزحف العثمانى صوب البلاد المصرية . ورأى طومان باى أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بالشام ، قبل أن يصلوا إلى الحدود المصرية . لكنه لم يجد من الروح المعنوية بين الأمراء والجند ما يستعين به على تنفيذ هذه الخطة السريعة الرشيدة ، ولا سيما بعد أن صارت البلاد الشامية حتى دمشق بيد العثمانيين . ولذا لم تتحرك أية حملة حربية من مصر إلا فى الثالث من ديسمبر سنة ١٥١٦ م ، وإلا بعد وصول العثمانيين بقيادة سنان باشا الصدر الأعظم إلى قرب غزة — وكل ذلك بسبب المطالب الباهظة التى أصرّ الجنود المملوكية على إجابتها قبل السفر ، مما أدى إلى التأخر فى المسير من القاهرة ، فضلا عن قلة العدد الذى استطاع طومانباى ترضيته بالمال . وكان المأمول من تلك الحملة التى جعل طومانباى على رأسها چان بردى الغزالى أن تصل إلى غزة قبل أن تدهمها الطلائع العثمانية ، لكن العثمانيين وصلوا إليها قبله ، واستولوا عليها بين عشية وضحاها . وعرّج چانبردى عن غزة ، واتجه شمالا يريد بذلك سبك دوره فى الخيانة ، فلقى سنان باشا وانهزم منه بعد قتال هين ، قرب بيسان على مقربة من عين جالوت .

وعلم طومانباى بمصير غزة بعد ثلاثة أيام من رحيل چانبردى من القاهرة ، فعزم على الخروج بنفسه لدفع العثمانيين عن مصر ، وأمر فنادى " أن الزُعر والصبيان والشطار والمغاربة ، وكل من كان مختفٍ على قتل قتيل " يظهر للاندماج فى جيش السلطان ، أملا فى تجهيز أكبر عدد من الجند لهذه الحملة النهائية . وفى الثامن من ديسمبر استعرض طومانباى جنود هذه الحملة من المماليك ، ولم يعف سوى فئة قليلة من الطاعنين فى السن ، وتفقد ثلاثين مركبة خشبية تجرها الثيران وعليها رماة البندق ، كما استعرض جمالا تحمل دروعاً مستحدثة لحماية الرماة الراكبة على ظهورها من نار القذائف العثمانية ، فكان لرؤية تلك المعدات الجديدة أحسن الأثر فى قلوب الجنود .

وبينا تكتمل هذه الجهود الجبارة ، وصل إلى القاهرة رسول على حين غفلة من عند السلطان سليم يخبر برحيله عن دمشق إلى غزة ، ويعرض على طومانباى الصلح بشرط أن يعترف بالتبعية للعثمانيين . وجاء فى رسالة سليم مخاطباً طومانباى " وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا ، فاضرب السكة فى مصر باسمنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبنا بمصر ، ولك من غزة إلى مصر ، ولنا من الشام إلى الفرات : وإن لم تدخل تحت طاعتنا أدخل (أنا) إلى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة . . . ". ويبدو من الحوادث التالية لوصول هذه الرسالة أن طومانباى لم يكره أن يفاوض السلطان سليما على هذه القاعدة المقترحة ، برغم ما لقيه الرسول العثمانى وأصحابه من سوء المعاملة والإخراق بشوارع القاهرة ، بعد خروجهم من حضرة السلطان بالقلعة ، وبرغم ما امتلأت به أفواه بعض الأمراء — على مسمع من السلطان طومانباى — من عبارات حماسية فارغة جوفاء . وربما قصد طومانباى بذلك المظهر أن يكسب بعض الوقت لإتمام استعداداته للحرب ، أو أنه ضاق بانحطاط الروح المعنوية بين البعض من أمرائه ، على حين نادى البعض الآخر بوجوب الاستعداد للقتال ، فرأى هو أن يتخذ من ذلك الموقف سبيلا إلى إشاعة الحماسة فى القلوب . ذلك أنه ليس من المعقول أن يكون طومانباى جاداً فى إظهار الميل للصلح ، على حين قامت الاستعدادات للحرب بإشرافه على قدم وساق ، كما أنه ليس من المعقول

أن يوافق طومانباى على قتل الرسول العثمانى — وهذا ما حدث فعلا — وفى قلبه ميل إلى الاتفاق على شىء مع السلطان سليم .

أما العجب العجاب هنا ، فهو أن المماليك أظهروا فى تلك الأيام العصيبة جهلا واستهتاراً بخطورة الموقف ، إذ أخذوا فى مساومة السلطان حول النفقة المعتادة غداة الخروج للقتال ، ولم يردهم إلى شىء من العقل سوى منظر إخوانهم العائدين بعد هزيمتهم المحزنة شمالى غزة فى أسوأ حال إلى القاهرة ، أواخر ديسمبر . ومما ساعد على إثارة الأمراء إلى تقدير خطورة الموقف ، أن أخبار وردت بأن أهل غزة هجموا على الحامية العثمانية هناك ، اعتماداً على أنباء كاذبة تخبر بانتصار المماليك لا هزيمتهم فى بيسان ، وأن السلطان سليما انتقم لتلك الفعلة بذبح عدد كبير من الغزيين . ثم وصلت الأخبار بمسير العثمانيين صوب الأراضى المصرية ، فعم الفزع أهل القاهرة ، وخرج طومانباى إلى الريدانية ، وفى نيته السير عنها فى سرعة إلى الصالحية ، على أن يستعرض عندها الجند قبل الزحف لملاقاة العثمانيين ، بعيداً عن القاهرة . غير أن الأمراء أشاروا عليه بالوقوف عند الريدانية والتربص هناك للعثمانيين ، وغلبوه على أمره ، فأخذ فى تحصين مراكزه عند هذه الضاحية القريبة كل القرب من القاهرة ، وأمر بحفر خندق على طول الخطوط الأمامية من سبيل علان إلى الجبل الأحمر من ناحية ، وإلى آخر غيطان المطرية من ناحية أخرى . ونصب طومانباى على هذا الخندق عدداً من " الطوارق والمكاحل المعمرة بالمدافع " ، على قول ابن إياس ، وصفّ حولها العربات الخشبية التى حملت رماة البندق ، ولابد أنه رتب الفيلة التى بعثها خصيصا من القاهرة ، وجعلها فى مكان صالح للاشتراك فى دفع العثمانيين إلى الوراء .

وفى يوم السادس ... ١٥١! م جاء الخبر إلى الريدانية بأن العثمانيين وصلوا إلى ... ، وهى أول البلاد المصرية . وتتابعت الأنباء بزحف ... تى إذا كان اليوم التاسع

الصالحية، أملا فى مفاجأة العثمانيين قبل أن يذهب عنهم تعب الزحف عبر الصحراء . لكن الأمراء غلبوه على أمره مرة ثانية، ظنًّا منهم فيما يبدو أن خندقهم فى الريدانية سوف يعصمهم من الهزيمة . ثم ورد الخبر فى الثانى والعشرين باستيلاء العثمانيين على بلبيس والخانكة ، ووصولهم إلى بركة الحاج شمالى الريدانية ، فدبت الحركة فى العسكر المملوكى ، ونادى السلطان بالنفير استعداداً للقتال . غير أن قتالا لم يحدث فى ذلك اليوم لأسباب يعلمها السلطان سليم ، ولم يعلمها طومانباى إلا صبيحة اليوم التالى ، وهو الثالث والعشرين ، حين رؤيت العساكر العثمانية وهى تتحوّل عن الريدانية صوب القاهرة، وحين اضطرت المماليك إلى التحوّل سريعاً للحاق بهم . ونشبت بين الفريقين معركة حامية، اشترك فيها كل من طومانباى وسليم . وثار الغبار حتى عميت الأبصار ، فذبح طومانباى بيده سنان باشا الصدر الأعظم،وفى ظنه أنه قتل السلطان سليما الأول . غير أن المعركة انتهت باندحار المماليك وفرار طومانباى ، بعد أن بقى فى الميدان حتى النهاية . ثم إنه لم يكن ثمة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير چانبردى كان متصلا بالخائن خاير بك ، ولم يقنع بإفشاء الخطة المملوكية عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم،مما أدى إلى اجتناب العثمانيين تحصينات الريدانية، بل نجح فى إقناع طومانباى بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين .

هذه هى وقعة الريدانية التى قررت مصير الإمبراطورية المملوكية تقريباً ، وليس يوجد فى قصة النهب والسلب،وما إلى ذلك من الحوادث التى اقترنت بدخول العثمانيين القاهرة بعد ساعات من هذه الوقعة،ما يستحق الذكر ،إلا دفاع طومانباى وكفاحه ضدّ المصير المحتوم . غير أن ... اً عن أن يقوم بشىء لنفسه ، أو لتخفيف الوطأة الع... ...ارت القاهرة تحت رحمة العثمانيين ، بل لم يبق ... السلاطين من جنس

من الشاميين المصريين ، ولا سيما البدو من العربان الذين لم يكن بينهم وبين الدولة المملوكية كلها منذ قيامها فى مصر سوى حب مفقود . ومع هذا كله لم يتطرق اليأس إلى قلب طومانباى ، بل ظل يقارع المقادير ، وتواصى بالصبر والشجاعة ، مما جعل أيامه الأخيرة قصة من أروع قصص البطولة فى العصور الوسطى .

أما الجيوش العثمانية ، فإنها دخلت القاهرة صحوة يوم الريدانية (الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ م) ، دون أن تلقى مقاومة ، ولكنها أعملت فى أرجائها السيف والنار والدمار . وبينما تعج الشوارع والدروب والحارات بصخب الجنود وتهالكهم على السلب والنهب فى ذلك اليوم ، سمع المصلون خطباء الجمعة يدعون للسلطان العثمانى سليم الأول من منابر القاهرة ، حيث ترجم له بعض الخطباء فى خطبته ، فقال : "وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه ..". ومن الواضح أن هذا الدعاء — إن صح جريانه على ألسنة بعض خطباء هذه الجمعة — اشتمل على ما سوف يقوم به العثمانيون من الفتوحات بعد استيلائهم على مصر والشام ، مما يدل على أنه ربما أوحى به إلى الخطيب للدلالة على ما عزمت السلطنة العثمانية على تنفيذه ، أو أن ابن إياس لم يكتب حوادث الفتح العثمانى فى تاريخه الكبير إلا بعد سنين .

وفى اليوم الخامس والعشرين من يناير سنة ١٥١٧ م نقل سليم معسكره من شمالى الريدانية إلى جهة بولاق ، مفضلا إياها على القلعة ، وجعل مركز قيادته قرب الموضع الذى تقوم عليه المطبعة الأميرية فى العصر الحاضر . ثم دخل سليم القاهرة فى اليوم التالى من باب النصر ، فشق المدينة فى موكب حافل يتقدمه الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من المباشرين . وسار الموكب حتى باب زويلة (بوابة المتولى الحالية) ، ثم عرج من تحت الربع عائداً إلى بولاق . غير أن طومانباى لم يدع صاحبه طويلا ، بل بغت المعسكر العثمانى ذات ليلة مظلمة ، تمهيداً لمعركة أعد لها ما استطاع أن يجد من بواقى المقاومة المملوكية . لكن سليما أفسد عليه خطته ، وأخرجه منهزماً فاراً من القاهرة ، فى اليوم الحادى والثلاثين ، بعد قتال ظل محتدماً بين الفريقين ثلاثة أيام ؛ وهذه هى وقعة الصليبة . ثم

أعقب العثمانيون هذه الوقعة بحرائق ومذابح هائلة فى أنحاء القاهرة ، وهى حرائق ومذابح سماها ابن إياس " المصيبة العظمى " التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان . والتجأ طومانباى إلى البهنسا فى الصعيد، وأخذ منه التعب كل مأخذ، ففكر فى الصلح ، وأرسل إلى السلطان سليم يعرض عليه استعداده للاعتراف بالسيادة العثمانية ، مع دفع الجزية التى يطلبها إليه السلطان، على شرط أن يجلو العثمانيون عن البلاد حتى الصالحية ، " وإن كنت ما ترضى بذلك اخرج ولاقينى (كذا) فى بر الجيزة ، ويعطى الله النصر لمن يشاء منا " .

ولم يكن السلطان سليم معترضاً على الصلح بهذه الشروط فيما يبدو ، أو أنه أراد – بعد أن استقرّ أخيراً بالقلعة وتحصن بها – أن يمدّ لطومانباى حتى يلقى بنفسه إلى تهلكة . وكيفما تكون الحقيقة، فإن السلطان سليما كلف الخليفة والقضاة الأربعة أن يذهبوا مع وفد عثمانى برياسة رسول اسمه مصلح الدين لمفاوضة طومانباى فى الصلح ، وأمدهم بصورة أمان ومطالعة جاء فيها على لسان سليم إلى طومانباى : " ولا تحسب إنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز . . . ؛ وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين " . غير أن الخليفة لم يشأ أن يسهم فى ذلك السعى ، فأناب عنه دواداره للذهاب مع المفاوضين . أما طومانباى فإنه سمح للأمراء بالتغلب عليه فى السلم ، كما تغلبوا عليه قبلا فى الحرب ، وشككه أحدهم واسمه شادى بك فى نيات سليم ، حتى إنه ترك الأمراء يفعلون ما يشاءون . وترتب على ذلك أن حيل بين المفاوضين وطومانباى ، إذ اعترضتهم طائفة من جند المماليك ، فقتلت العثمانيين وأخرقت بالدوادار الخليفى والقضاة الأربعة إخراقاً شنيعاً . وانتقم سليم لتلك الفعلة بقتل عدد من الأمراء الذى سلموا له بالأمان عند دخوله القاهرة ، وأقسم أنه سوف يسير إلى طومانباى ويقتفى أثره، ولو كان " فى آخر الدنيا " .

ولم ينتظر طومانباى ما سوف يقوم به السلطان سليم بعد وصول أخبار وفد الصلح ، بل تقدم نحو الجيزة كما أنذر إذا فشلت المفاوضات، فوصلها فى جمع كبير . ووجد طومانباى أن العثمانيين معسكرون عند بركة الحبش فى الجهة المقابلة منها للنيل ، وعلم أنهم يتأهبون للعبور إلى برّ الجيزة ، فعزم على

إغراق المعادى العثمانية كلما وصلت واحدة منها إلى البرّ ، وأنزل بها خسائر فادحة فعلا ، حتى أمر سليم بإيقاف العبور . ثم تلا ذلك معركة ترامى فيها الفريقان من ضفتى النيل بالنبال ورصاص البنادق . وفوجئ طومانباى أثناء ذلك بهجوم البدو على مؤخرته، فاضطر إلى التقهقر إلى طريق الأهرام . عند ذلك عبر العثمانيون النيل على جسر من القوارب ، والتقوا أخيراً بجيش طومانباى على مقربة من وردان ، أول إبريل سنة ١٥١٧ م ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ظلت يومين ، وكاد الأمير شادى بك يوقع الهزيمة بفرقة من العثمانيين ويلقى بها إلى الماء ، غير أن هذه المعركة انتهت بانتصار العثمانيين .

وتمكن طومان من الهرب لثالث مرة ، والتمس الحماية لدى شيخ من شيوخ البدو بمديرية البحيرة الحالية اسمه حسن بن مريم ، لما له عليه من يد بيضاء حين أخرجه من غيابة السجن من الغورى . لكن حسناً هذا جحد الفضل القديم ، وأخبر عن دخيله طومانباى خوفاً من العاقبة ، أو كرها فى المماليك ؛ ولذا لم يجد طومانباى مفرّاً من التسليم . ووصلت أنباء ذلك إلى أتباعه ففقدوا الأمل فى مقاومة العثمانيين ، وتفرقوا بدداً . ثم جىء بطومانباى مقيداً فى الحديد إلى الحضرة السلطان العثمانية بالجيزة ، فقام له سليم عند دخوله ، وعتب عليه مقاومته الطويلة "ببعض كلمات" ، على قول ابن إياس ، ثم اتهمه بقتل المفاوضين إشارة لما سوف يلقى طومانباى كذلك من القتل . غير أن طومانباى لم يتهدم أمام سليم ، بل ظل رابط الجأش حافظاً لهيبته ، فنفى عن نفسه تهمة الاشتراك فيما وقع للمفاوضين ، وشرح عدالة موقفه فى غير خوف أو خشية ، كما تكلم فى واجبه الحربى وشرف استقلال بلاده ، حتى ملأ السلطان سليما إعجاباً به ؛ وبدا للحاضرين كأنما يكاد سليم يأمر بالإبقاء عليه ، أو كما قال ابن إياس . وسرت بين الناس بعد ذلك إشاعة أن السلطان يفكر فى أن يأخذ طومانباى معه إلى القسطنطينية ، أو يرسله منفياً إلى مكة مدة حياته ، لكن خاير بك وجانبردى أقنعا السلطان بأنه طالما بقى طومانباى على قيد الحياة ، فسوف يظل الحكم العثمانى بمصر والشام فى خطر شديد ، فانصاع سليم لتلك المقالة ، وأمر بإعدام طومانباى .

وفى اليوم الثالث والعشرين من إبريل سنة ١٥١٧ م — وهو يوم الخماسين

تلك السنة ، أخرج طومانباى من سجنه ببرّ إنبابة فى حرس عدته أربعمائة من الجند ورماة النفط ، فحمل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة . وأخبره أحد الجند صبيحة ذاك اليوم عند باب السجن بقرار السلطان ، فلم يظهر خوفاً أو اهتماماً ، بل سار وسط الحرس رافع الرأس ، وجعل يسلم على الناس طول الطريق ، حتى إذا وصل إلى باب زويلة ، وأنزله الحرس عن الفرس ، وأرخى له المشاعلى حبل المشنقة ، دعا طومانباى للملأ أن يقرأوا له الفاتحة ثلاثاً ، وبسط يده إلى السماء وقرأ عن نفسه فى صوت مسموع ، وقرأت الناس معه . والتفت طومانباى بعد ذلك إلى المشاعلى وقال له " اعمل شغلك ". ثم وضعت الحية فى رقبة طومانباى ، وشُدّ الحبل ، ولكنه انقطع ، فسقط آخر سلاطين مماليك مصر والشام ميتاً على عتبة باب زويلة . وقيل انقطع به الحبل مرّتين ، وهو يهوى إلى الأرض ثم يعلّق حتى مات . وظلت جثة طومانباى معلقة ثلاثة أيام ، ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان قانصوه الغورى لنفسه .

ولابن إياس فى وصف الأيام الأخيرة من حياة طومانباى عبارات ملؤها الحزن على ما صارت إليه مصر من التغير ، بعد ذهاب الدولة المملوكية ومجىء العثمانيين ، على أنه لم ير فى ذلك التغير شيئاً إلا ما جرت به المقادير التى ليس لإنسان عليها سلطان ، وإنما حزّ فى نفسه أن مصر صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله " أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحامى مُلك مصر الذى افتخر به فرعون . . . ".

محمد مصطفى زيادة